إضاءة

أحمد شوقي شاعر الأمراء.... وأمير الشعراء

((١٨٦٨ - ١٩٣٢م))

ولد في القاهرة في زمن الخديوي اسماعيل سنة /١٨٦٨م/ درس في مدرسة "المبتديان" ثم في المدرسة "التجهيزية". وفي سنة /١٨٨٣م/ دخل كلية الحقوق، ثم أرسله الخديوي توفيق إلى فرنسا سنة /١٨٨٧م/ لمتابعة دراسة الحقوق، فدرس سنتين في مدينة مونبلييه وسنة في باريس، ونال الإجازة في الحقوق سنة /١٨٩١م/. وقد رحل في أثناء تلك المدة إلى انكلترا والجزائر. وعاد إلى مصر سنة /١٨٩١م/. وكان يتقن ثلاث لغات: العربية والفرنسية والتركية.

وفي أوائل سنة /١٩١٥م/ نُفي من مصر فارتحل إلى أسبانيا وأقام في برشلونة. ولم يعد إلى مصر إلاّ في أواخر سنة /١٩١٩م/. ولما أنشئت الحياة النيابية في مصر عُيّن شوقي عضواً في مجلس الشيوخ.

وفي هذا الشأن كان المنفى الأسباني الذي فرض على أحمد شوقي بعيد قيام الحرب العالمية الأولى سنة /١٩١٤م/ نقطة التحول الكبرى في حياته الشعرية، وفرصته للخلاص والتطهير، على حد تعبير الناقد الأديب فاروق شوشة.

ها هو ذا الشاعر الذي أطلق على نفسه شاعر الأمير:

شـــاعر الأمـــير ومـــا بالقليـــل ذا اللقـــب

والذي أطلق عليه الناس شاعر القصر، يُنفى بأمر الاستعمار الانكليزي خارج وطنه، لشبهة ارتباطه الحميم بالخديوي عباس حلمي الثاني، الذي خلعه الانكليز

عند نشوب الحرب خشية ولائه لتركيا التي وقفت في المحور المعادي لانكلترا، وأتيحت لشوقي بالرغم من مرارة الغربة، فرصة التأمل في حاضره ومستقبله. إنه يُنفى بسبب ارتباطه بالقصر. لِمَ لا يكون ولاؤه من الآن للشعب وللعرب، الذين شغلوا بشعره وفتنوا به، وتنبهوا منذ وقت مبكر إلى عبقريته الشعرية وسبقه لكل شعراء زمانه. وهكذا كان الالتفات إلى الشعب، بعد العودة من المنفى الإسباني إلى وطنه مصر، بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى المشؤومة أوزارها.

وفي سنة /١٩٢٧م/ عُقد مهرجان لتكريمه في دار "الأوبرا" بالقاهرة، فحضرته وفود البلدان العربية وبايعته بإمارة الشعر.

وفي هذا الصدد فقد تعرض أحمد شوقي خلال حياته، إلى نقد مرير، فقد هوجم كما لم يهاجم شاعر مثله حياً، ودبجت فيه الكتب والمقالات والموازنات وفتحوا عليه النار وأبواب الجحيم من كل جانب. هاجمه عباس محمود العقاد وزميله ابراهيم عبد القادر المازني في كتابهما الشهير ((الديوان)) بما معناه:

لقد ذاع لشوقي بيت سوقي فظن أنه سقط على كنز وطار به، كأنه لا يصدق أنه له أو كأنه يخشى أن ينازعه لفرحته به وهو:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكرر فقال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن تولت مضوا في أثرها قدما

ثم كرر أيضاً في قوله:

وليس بعامر بنيان قوم

إذا أخلاقهم كانت خرابا

ثم كرره إذ يقول:

ملـــك علـــى الأخـــلاق كـــان بنـــاؤه

مـــن نحـــت أولكـــم ومـــن صـــوانه

وكرره في نشيده وفي قصائد أخرى، وكل هذا الفرح بمعنى يعد من تحصيل الحاصل إن كان له مدلول، فليس يقول لك ما يستحق أن تصغي إليه من يخبرك بأن الأخلاق الصالحة ملاك صلاح الاجتماع وقوام الأمم. ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون عكسه ظاهر البطلان ويطرد فلا يزيد على ما هو متعارف فإنما يقرر البديهيات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية أو حقائق التمرينات الأولية.

ورحم الله القناعة، لقد كان الشاعر ابن سودون المجنون يضحك الناس في بائيته بمثل هذه الحكم:

عجـــبٌ عجـــب عجـــب عجـــب بقـــر تمـــشي ولهـــا ذنـــب

لا تغـــضب يومـــاً إن شـــتمت والنـــاس إذا اشـــتموا غـــضبوا

إلى أن يقول:

الناقـــــة لا منقـــــار لهـــــا والـــــوزة لـــــيس لهـــــا قتـــــب

وكثيراً في قصيدته من حكمة كهذه كان أقصى مناه أن يقال فيها أنها سخيفة ظريفة. وها هنا شاعر خلا كلامه من هذا الظرف ولكنه يطمع بالسخف البحت أن يستأثر بدولة الحكم والأمثال.

ومهما يكن من أمر فإن أمير الشعراء أحمد شوقي كان يدافع عن مجده ويؤمن أنه فوق النقد والنقاد، ولم يكن مغالياً في رأيه، فيعترف النقاد بعبقريته، لكن بعد رحيله، ويتراجع من رشقه بسهام النقد عن انطباعاته حول تراثه الشعري الشامخ، لا سيما إذا عرفنا أن تجربة أحمد شوقي الشعرية قد صقلت واكتملت ونضجت في السنوات الخمس الأخيرة من حياته، مما أتاح لناقديه أن يتراجعوا عن أفكارهم السابقة....

فيقول العقاد بعد رحيل شوقي واصفاً إياه بأنه إمام مدرسة:

"كان أحمد شوقي علماً في جيله. كان علماً للمدرسة التي انتقلت بالشعر من دور الجمود والمحاكاة الآلية إلى دور التصرف والابتكار. فاجتمعت له جملة المزايا والخصال التي تفرقت في شعراء عصره".

ويقول عميد الأدب العربي طه حسين:

"هو شاعر خُلق ليكون مُجدِّداً فأقبل على التجديد في السنين الأخيرة من حياته، فأدخل في اللغة العربية وفي الشعر خاصة فناً جديداً لم يسبقه أحد إليه. ومهما يكن من شيء فحسب شوقي أنه ردّ للشعر العربي قوته ورصانته ومكانته".

ويقول المازني:

"إن شوقي كان من أنضج شعراء طبقته وكان أدقهم تعبيراً وأبلغهم، وكان عنواناً ورمزاً لمصر والمشرق العربي كله وأكبر ظني أن اسمه سيظل مذكوراً في تاريخ عصره مهما بلغَ اختلاف الناس في أمره".

واختلف الناس في أمره كثيراً....

وفي كل الحالات عاش شوقي ومات سنة /١٩٣٢م/...

وكان الاثنين معاً على حد تعبير الأديب فتحي سعيد:

شاعر الأمير.... وأمير الشعراء.

وباختصار شديد... فإن أحمد شوقي واسع المواهب الشعرية، عرف وبمهارة أن يجمع بين القديم والحديث، وأن يستفيد من موضوعات وأساليب الإفرنج، فلم يكتف بقصائد الرثاء والمدح والوصف، وتسجيل الأحداث التاريخية الجسيمة، مما تجده عند شعراء عصره أمثال: حافظ ابراهيم، واسماعيل صبري، وخليل مطران، ومحمود سامي البارودي، بل نظم التمثيليات الشعرية، والأمثال، والتاريخيات وما إلى ذلك، مما جعل له قيمة فنية رفيعة.

وتجدر الإشارة... إلى أن اللغة في شعر شوقي، أبرز عنصر من عناصر هذا الشعر، رزقه الله ذوقاً سليماً في اختيار الألفاظ وتنسيقها، فله أذن موسيقية تعرف ما يخف من الألفاظ وما يثقل على السمع، أحيا شوقي طائفة عظيمة من ألفاظ

المتقدمين أو الشعراء القدامى على حد تعبير شاعر الشام شفيق جبري. وفيما يلي هذه القصيدة التي كتبها عن لبنان وهي تثبت هذا الرأي وتقربه إلى الأذهان:

وأغـــنَّ أكحـــلَ مِـــنْ مَهـــا بكْفّيـــةَ
علقـــتْ محـــاجرُهُ دمـــي وعلقتُـــه

لبنـــانُ دارتُـــه وفيـــه كِناسُـــه
بـــين القنـــا الخطَّـــار خـــط نَحِيتُـــه

السلـــسبيلُ مـــن الجـــداول ورْده
والآسُ مـــن خُـــضْر الخمائـــل قَوتُـــه

إن قلـــتُ تمثـــالُ الجمـــال مُنَـــصَبَّاً
قـــال الجمـــالُ بـــراحتيَّ مَثّلتُـــه

دخـــلَ الكنيـــسةَ فارتقبـــتُ فَلـــمْ يطـــل
فأتيـــتُ دون طريقـــهِ فَزَحمتُـــه

فـــازورَّ غـــضبانا وأعـــرض نـــافراً
حـــال مـــن الغيـــدِ المـــلاح عرفتُـــه

فـــصرفتُ تلعـــابي إلى أترابـــهِ
وزعمـــتُهنَّ لبـــانتي فأغَرتُـــه

فمـــشى إلـــيَّ ولـــيس أول جـــؤذرٍ
وقعـــت عليـــهِ حبـــائلي فَقَنَـــصتُه

قـد جـاءَ مـن سـحر الجفـونِ فـصادَني
وأتيـــتُ مـــن ســـحر البيـــان فَـــصِدتُه

لمـــا ظفـــرتُ بـــهِ علـــى حـــرمِ الهُـــدى

لابـــــن البتـــــولِ ولللـــــصلاة وهبتُـــــه

وفيما يلي هذه الشروحات اللغوية لألفاظ كانت رائجة عند الشعراء المتقدمين، نثبتها هنا إيصالاً للفكرة التي أشرنا إليها.

أغن: يخرج صوته من خياشيمه والاسم: الغنّة.

أكحل: من الكحل وهو أن يعلو منابت الأشفار سواد خلقه. كحل كفرح فهو أكحل وهي كحلاء.

المها: جمع مهاة وهي البقرة الوحشية.

المحاجر: جمع محجر كمجلس ومنبر: محجر العين ما دار بها وبدا من البرقع.

الدارة: قد تكون الدار وهي المحل يجمع البناء والعرصة وقد تكون كل أرض واسعة بين جبال.

كناسة: مستتر الظبي في الشجر، وكنس الظبي يكنس دخل في كناسه لأنه يكنس الرمل حتى يصل.

القنا: جمع قناة وهي الرمح.

الخطّار: من خطر الرمح إذا اهتز يخطر.

النحيت: من نحته براه.

السلسبيل: اللين الذي لا خشونة فيه والخمر وعين في الجنة.

الجداول: جمع جدول وهو النهر الصغير.

الورد: الإشراف على الماء.

الخميلة: الشجر الكثيف والملتف والموضع الكثير من الشجر.

مثّله ومثله: بالتثقيل والتخفيف صوره.

ازورّ عنه: عدل وانحرف.

الأتراب: جمع ترب وهو من ولد معك.

لبانتي: حاجتي.

أغرته: من الغيرة.

الجؤذر: وتفتح الذال ولد البقر الوحشية.البتول: المنقطعة عن الرجال وهنا: السيدة مريم العذراء.

يرى الدكتور شوقي ضيف: ((أن شوقي قد غنّى للشعب المصري، عواطفه الوطنية الماضية والحاضرة، غناءً مَلَكَ عليه لبه)).

دعا شوقي إلى الأخوة العربية، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، حين ضعفت حماسته للأتراك ـ كان قبل ذلك يدافع عن الإسلام، ويدعو إلى الخلافة، ويكثر من مدح الأتراك. ذلك يعود إلى الدم التركي الذي يجري في عروقه، وإلى ولاء سيده الخديوي لهم ـ. وهو لا يترك مناسبة، إلاّ ويكرس عروبته هذه، ومن ذلك قصائده في الشام ولبنان وسائر بلاد العرب.

أُخِذَ على شوقي، أنه أكثر من شعر المناسبات، من مدح للخديوي في أعياده وفي ذهابه وإيابه، وفي رثائه للأعيان، وإشادة بالاختراعات الجديدة، وأعمال البر والإحسان والمنشآت العمرانية. غير أن الدكتور شوقي ضيف يرى: ((أن شوقي في شعره هذا، يختلف عن الشعراء القدامى في مدحهم. فهؤلاء لم يفكروا بغير الخلفاء، أو الأمراء الذين كانوا يمدحونه، بينما شوقي يفكر ليس في ممدوحه وحسب، بل وفي جمهور الناس الذي سوف يقرأ قصائده هذه)).

رثى شوقي الأبطال المصريين والعرب، وصوّر آلامهم وآمالهم، وتضحيات وبطولات شعبهم، ورثى الرجال العظماء من أدباء وشعراء وصحفيين ووجهاء، وذوي نفوذ وسلطان، ولم يكتف بذلك، بل ذهب يرثي شخصيات عالمية، فرثى "فردي" الموسيقار المشهور، و"تولستوي" الأديب الروسي و"نابليون" البطل الفرنسي، ورثى الأديب الفرنسي "فيكتور هيغو" في ذكراه المئوية.

الذي يتصفح الشوقيات، على حد تعبير الدكتور ميشال خليل جحا، يجد أن شوقي لم يترك مناسبة هامة إلاّ تعرض لها سواء اتصلت بالشرق أو بالغرب. وهكذا ارتفع شوقي بشعر المناسبات إلى الذروة، بحيث لم يترك زيادة لمستزيد. على أن شوقي، والكلام ما يزال للأديب الناقد ميشال خليل جحا، يمتاز بشعره الغنائي، فكان شعره يشبه "السيمفونية". فقد كان شاعراً طافحاً بالموسيقى، حتى أنه لو

لم يكن شاعراً، لكان موسيقياً:

مُـــضْناكَ جَفَـــاهُ مَرْقَـــدُهُ وبَكـــاهُ وَرحَّـــمَ عُـــوَّدُهُ

حـــيرانُ القلـــبِ مُعَذَّبُـــهُ مَقـــروحُ الجفْـــنِ مُـــسَهَّدَهُ

يـــستهوي الـــوُرْقَ تأوهُـــهُ ويـــذيبُ الـــصخرَ تَنَهـــدُهُ

وقد اشتهر شوقي بالارتجال العفوي في نظم الشعر. فقد كانت له موهبة فذّة، لا يتمتع بها كل الشعراء، بل قلة، جعلته يجيد النظم حتى ولو كان في جمع غفير من الناس. وفي هذا الشأن يقول الشاعر خليل مطران: ((ينظم الشعر بين أصحابه، فيكون معهم وليس معهم، وينظم في المركبة وفي السكة الحديدية، وفي المجتمع الرسمي، حين يشاء وحيث يشاء)).

ويصف لنا الدكتور زكي مبارك، التقاليد الصارمة التي كانت تسيطر على سلوك أمير الشعراء أحمد شوقي بما معناه:

كان يشرب الشاي بكثرة، وكان مغرماً بأكل البيض، كان يأكله نيئاً عند نظم الشعر، ولم يكن شوقي يستحم بالماء كما يستحم الناس، وإنما يستحم "بالكولونيا".

ولم يكن شوقي يفطر في البيت، وإنما يمضي مع الشروق، فيفطر في مطعم عام. وكان من عادة شوقي أن يتناول عشاءه في مطعم من المطاعم الفاخرة في القاهرة.

وعندما كان شيطان الشعر يداعب خيال أحمد شوقي، لم يكن يرغب في صحبة أحد معه في جولاته الهائمة غير الدكتور زكي مبارك.

ذات صباح شرب شوقي الشاي في مكتبة بشارع جلال، وقدّم لضيوفه بعض قطع "الكروسان" التي كانت تعد بكميات وافرة، وهي إحدى هوايات شوقي، فيأكل واحدة، ويقدّم لضيوفه منها.

وكان الدكتور زكي مبارك على عادته يجالس أمير الشعراء الذي وقف فجأة، وأخذ زكي مبارك في يده ثم خرج، وسارت بهما السيارة إلى كوبري قصر

النيل، حيث نزلا منها، ووقف شوقي عند سور الكوبري، وبدأ يكتب على ظهر علبة "السكائر":

مـــن أي عهـــد في القـــرى تتـــدفق؟

وبـــأي كـــف في المـــدائن تغـــدق؟

ومـــن الـــسماء نزلـــت أم فجـــرت مـــن:

عليـــا الجنـــان جـــداول تترقـــرق

واستمر يكتب القصيدة الخالدة التي لم يكتب مثلها عن النيل، والتي غنتها السيدة أم كلثوم، فبعثت فيها خلوداً فوق خلود.

وفجأة انهار شوقي وتهاوى، ولم تعد ساقاه تستطيعان حمله، وقال لزكي مبارك: احملني!.

فحمله، كما يحمل الطفل، وعاد به إلى السيارة. ويقول زكي مبارك: إن شوقي طفل، وإنه أخف في وزنه من ريش النعام، وكان شوقي يبكي بكاء الطفل ويغمغم: "من أي عهد في القرى تتدفق...". وكانت المرة الثانية التي حمل زكي مبارك أحمد شوقي على كتفه هي يوم جنازة شوقي، فقد تقدم الدكتور زكي مبارك، والدكتور أحمد زكي أبو شادي، وغيرهما.... وحملوا النعش على أكتافهم، وقال زكي مبارك مرة أخرى: إن نعش شوقي كان أخف من ريش النعام.

وفي سياق هذه الإضاءة... لا بدّ لنا من الوقوف عند شعره الفكاهي:

من الشخصيات التي كانت مثار الاهتمام الصحفي والأدبي، الدكتور محجوب ثابت "١٨٨٤ ـ١٩٤٥"، فقد كان فضلاً عن علمه الوافر يمتاز بروح مرحة ودعابة طريفة... وكان يطمح إلى تقلد إحدى الوزارات.

كان محجوب ثابت يكره المداعبة حين تجرح، وكانت أكثر الدعابات الجارحة تأتيه من شوقي... كان شوقي يعرف نقطة ضعفه، فكان يحمل إليه دائماً أنباء لا تسره: ((كم أنت ضائع الحق يا محجوب، إن صاحبك النقراشي اعترض

obeikandl.com

على تعيينك وزيراً للصحة، ولم يهدأ له بال إلاّ بعد أن حذف اسمك من قائمة الوزارة)). ويصدّق الدكتور محجوب ثابت الدعابة، وينطلق يسب النقراشي، ثم يدرك بعد أيام أن شوقي خدعه، وأنه كان ضحية مؤامرة مدبرة... ولكن إدراكه أن شوقي يخدعه كان لا يمنعه من أن يصدق نفس الرواية إذا عاد شوقي وقصها عليه، وقد ظل شوقي أكثر من خمسة أعوام يحمل إلى الدكتور محجوب نبأ اختياره وزيراً للصحة، ثم اعتراض بعض الوزراء على هذا التعيين... وظل محجوب ثابت خلال هذه السنوات الطويلة يصدق شوقي في كل مرة، ثم يكتشف كل مرة أنها كانت خدعة، على حد رواية الأديب محمود السعدني، وأنه كان ضحية مكيدة مدبرة... وكان محجوب يغضب أياماً ثم تصفو نفسه، فيعود إلى شوقي، ولكن شوقي هجاه بقصيدة فكاهية جعلت محجوب يقرر الدخول مع شوقي في معركة طاحنة، وأعلن أنه سيعري شوقي أمام الناس، وأنه سيكشف عن سرقاته الشعرية، وسيميط اللثام عن جهل شوقي، وسيجعل فيه عبرة لمن يرى، وفعلاً، يكتب الدكتور محجوب مقالاً نارياً في هجاء شوقي يبعث به إلى جريدة الأهرام، ولكنه يعود عن قراره فيتصل بالأهرام في المساء طالباً من رئيس التحرير فيها عدم نشر المقال، فقد خشي أن يؤدي نشره إلى قطيعة أبدية بينه وبين شوقي، وكانت القصيدة التي أهاجت محجوب وأغضبته:

براغيـــث محجـــوب لم أنـــسها

ولم أنـــس مـــا شـــربت مـــن دمـــي

تـــشق خراطيمهـــا جـــوربي

وتنفـــذ في اللحـــم والأعظـــم

وتنظرهـــا حـــول بيـــب الـــرئيس

وفي شـــاربيه وحـــول الفـــم

بـــواكير تطلـــع قبـــل الـــشتاء

فتحمـــــل ألويـــــة المواســـــم

قـــد انتـــشرت جوقـــة جوقـــة

كمـــا رشـــت الأرض بالسمـــسم

ترحـــب بالـــضيف عنـــد الطريـــق

فبـــاب العيـــادة فالـــسلم

بين شاعرين

كانت هناك فوارق ين حياة أحمد شوقي وحياة حافظ ابراهيم، وهي شديدة الشبه بالفوارق بين جوته وشيللر. فقد كان جوته وشوقي من الأغنياء وكان شيللر وحافظ من الفقراء. ولكن آلهة العبقرية لا تعرف الغنى والفقر. وقد عُرف عن شوقي أنه كان يستحم بالكولونيا وماء الورد، ولا يستحم بالماء، على حين كان يحلو لحافظ ابراهيم أن يعيش حياة أبناء البلد، فيرتدي الجلابية والمعطف في غالب الأحيان، ولا يرتدي البدلة إلاّ في المناسبات، وكان ينتقل في القاهرة على عربة الترام بالدرجة الثانية، عندما كان أجر الركوب ستة مليمات.

لم تكن لشوقي شلة من الأصدقاء، لكنه كان يستقبل ضيوفه في قصره استقبالات شبه رسمية: في حفلات شاي، أو أمسيات كوكتيل، أو عشاء. كما كان يستقبل بعض الأدباء والصحفيين في مكتبه. أو يجلس مع بعض أصدقائه في المحال الراقية. وكان قليل الكلام سارحاً في ملكوت الله.

أما حافظ ابراهيم فقد كانت له أكثر من شلة، ونكت رائعة رويت عنه، ولكنها لم تسجل. وكان يشاركه في النكت والتنكيت الشيخ عبد العزيز البشري، ومحمد البابلي، وكان ثلاثتهم في جيلهم فرسان الفكاهة...

هذا هو الجو الذي كان يعيش، جو المرح والفكاهة والنكتة، على خلاف شوقي الذي كان يعيش حياة القصور.

أما حافظ ابراهيم فقد كان بوهيمياً منطلقاً. فلا بيت ولا زوجة ولا أولاد، ولا علاقات عائلية وليس له نظام في حياته إلاّ مع أصدقائه وأشهرهم: محمد البابلي، ومحمد المويلحي، وصادق رستم وبيرم التونسي.

وماذا نقول عن أمير الشعراء وشاعر العروبة أحمد شوقي. إن معظم ما تقرؤه له ظريف يعبق باللطف والطرافة والجِدَّة... ولو شاء أن يكتب شيئاً لا ظرف فيه لاستعصى عليه ما أراد إنه رسول الحياة، كما وصفه الأديب أحمد عبد المجيد.

وهو يجمع ثلاث صور في نفس واحدة. إنه شاعر نهج البردة الذي قال:

ريمٌ على البقاع بين البان والعلم

أحلَّ سفك دمي في الأشهر الحُرُمِ

إلى أن يناجي الرسول العربي صلى الله عليه وسلم، بقوله في نجواه الطاهرة:

سَرَتْ بشائر بالهادي ومولده

في الشرق والغرب مسرى النور في الظلم

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم

إلاّ على صنم قد هام في صنم

وهو نفسه، رسول الحياة وترجمان ما بها من متع ولذائذ، والداعي لما تشتاقه النفس من هذا النعيم قبل أن يولّى العمر، ويذبل الشجر ويذوي الزهر. وهو يقول في حلبة رقص وفي كأس:

حفَّ كأسها الحبب فهي فضة ذهب

ثم يهرب من واقع ما يأمر به الدين الحنيف فيفرغ إلى المتعة:

رمـــضان ولّـــى هاتهـــا يـــا ســـاقي

مـــــشتاقة تـــــسعى إلى مـــــشتاق

ثم نراه في صورة ثالثة، كالروح الشفيفة التي ترِفُّ وتملأ الحياة دعابة لطيفة، كأنها رفيف الفراشة أو نسمة الربيع. فتراه يصف لحية وعيادة الدكتور محجوب ثابت التي أوت إليها البراغيت، وقد أشرنا إلى هذه القصيدة في إحدى الصفحات التي سبقت هذه الصفحة.

ولأحمد شوقي آثار مختلفة أراد أن يحذو فيها حذو كتّاب العرب كتّاب الإفرنج فكان كثير الإنتاج. له ديوان شعر سمّاه "الشوقيات" في أربعة أجزاء، كما له مسرحيات شعرية: مصرع كيلوباترا، مجنون ليلى، علي بك الكبير، وأميرة الأندلس، وعنترة، والست هدى، والبخيلة.

وعندما بدأ شوقي يكتب مسرحياته الشعرية، لم يكن ثمة كاتب ناثر أو شاعر عربي قد قدّم شيئاً واضحاً في هذا الإطار... لم تنشر المسرحية العربية في ذلك الوقت في صحيفة أو مجلة أو كتاب. ولم يجرؤ كاتب على أن يقدم عملاً متكاملاً ذا معنى واتجاه. ولذلك وجب التشديد على الأهمية الكبرى لمسرحيات شوقي الشعرية، في مسيرة وتطور الأدب المسرحي العربي.

ولم يفت شوقي أن يتقدم أكثر فأكثر من روح المجتمع الذي يحيا فيه، كأي مبدع كبير، فعالج القضايا الإنسانية والاجتماعية في عمله الأخيرين الست هدى، والبخيلة، وبذلك خرج منصرفاً عن شخوص الحكّام والملوك إلى إطار أرحب هو إطار الجماهير.

وهو في مسرحياته الشعرية شاعر أكثر منه رجل مسرح.. تغلبه طبيعة الشاعر أكثر مما تشده طبيعة رجل المهنة. فلم يحاول أن يكون مسرحيّاً بمعنى الكلمة أو مسرحيّاً وشاعراً معاً كشكسبير، وترك لشاعريته الحبل فامتد طوال مسرحياته، فكان شاعراً رومانسيّاً أفاض في انفعالاته وتهويماته وانساب في غنائيته وكان شاعراً كلاسيكياً في نفس الوقت حين حافظ على الشكل واستغل عُقَدَ الصراع

obeikandl.com

بين متعارضين معتلياً منبر الخطابة الذي هو خشبة المسرح ليهز سيف عنترة أو ليفجر أسى قيس، أو ليشعل شبق كيلوباترة بحيث يمكن استقطاع قصائد كاملة من مسرحياته لتكون شعراً غنائياً يروى ويغنى.

((وكان من أهم ما وجه إلى شوقي من نقد أنه استخدم أوزان الشعر الغنائي وقوافيه ورواسبه اللفظية والخيالية، وأطال في الحوار ببعض المواضع حتى خرج عن وظيفته المسرحية)).

فلم يحفل شوقي بقواعد المسرح كثيراً وغلبه الشعر على أمره واكتفى مما شاهده في بعثته بباريس من مسرحيات موليير وكوريني وراسين، ولكنه بلا شك... كان له السبق في ارتياد حقل المسرح كفن جديد عَزَّزَ به شاعريته ولقبه وتوج به سنواته الأخيرة، على حد رأي الأديب الناقد فتحي سعيد.

وبكلمات قليلة فإن أمير الشعراء أحمد شوقي، عبقرية شعرية نادرة وفذة، لن يجود الدهر بمثلها، حيث أعاد إلى الكلاسيكية الشعرية العظمة والشموخ والروعة، والنغمة الموسيقية الشجية، التي هي سحر الشعر العربي وعطره، كما خلص الشعر العربي الحديث، آنذاك، من الإسفاف والركاكة والانحدار، ولا غرابة في ذلك فقد اقتبس وتمثل روح شعرائنا المتقدمين أمثال: المتنبي، والبحتري، والنواسي، وابن زيدون

وبذلك أغنى ديوان الشعر العربي الخالد، بميراثه الشعري أكثر من كل شاعر كان ينسج على منواله، أي على طريقة الشعراء المتقدمين، مع التنويه بأن أحمد شوقي ظهر في عصر انقطعت فيه الصلة بالقديم، فكان دوره أن يرجع بنا إلى الماضي الزاهي بلغة تتماشى وذوق العصر ومفاهيمه الجديدة، فكان له فضل تثبيت اللغة المناسبة لعصره، دون أن يقع بصورة فجة في أسر الكلمات الوحشية، أو المهجورة، التي تنام غافية في صفحات القواميس.

شوقي في مرآة نفسه

بقلم أحمد شوقي

الحمد لله الذي علم البيان. وجعله أثراً من روحه عند الإنسان. والصلاة والسلام على نبي الأمة. القائل أن من الشعر لحكمة، (أما بعد) فما زال لواء الشعر معقوداً لأمراء العرب وأشرافهم. وما برح نظمه حبيباً إلى علمائهم وحكمائهم. يمارسونه حق المراس. ويبنون كل بيت منه على أمتن أساس. موفين إجلاله حافظين خلاله. مدنين إلى الأذهان خياله.

قاله امرؤ القيس واصفاً وحاكياً. وضاحكاً وباكياً وناسباً وغازلاً. وجداً وهازلاً. وجمع شمله بحيث تعد المنظومة الواحدة له أثراً في البيان مستقلاً وبنياناً قائماً برأسه.

ونظمه أبو فراس فخراً عالياً. ونسيباً غالياً. وحكماً باهرة. وأمثالاً سائرة. لكنه لم يقله فوضى ولا قرب في نظمه الخلط فإن قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها:

أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر

أما للهوى نهي عليك ولا أمر

ليست إلاّ عقداً توحد سلكه وتشابهت جواهره ودق نظامه. تعاونت فيه ملكة العربي وسليقة الشاعر على حسن الحكاية. فإذا فرغت من قراءتها فكأنك قد قرأت أحسن رواية. وهذا وكونها أشبه شيء بالشعر في شعور الأنفس هما سر بقائها متلوة إلى الأبد.

وكان أبو العلاء يصوغ الحقائق في شعره ويوعى تجارب الحياة في منظومه ويشرح حالات النفس ويكاد ينال سريرتها ومن تأمل قوله من قصيدة:

فــلا هطلــت علــي ولا بأرضــي ســحائب لــيس تنــتظم الــبلادا

وقابل بين هذا البيت، وبين قول أبي فراس:

معللــــتي بالوصــــل والمــــوت دونــــه

إذا مــــت ظمآنــــاً فــــلا نــــزل القطــــر

ثم نظر إلى الأول كيف شرع سنّة الإيثار وبالغ في إظهار رقة النفس للنفس وانعطاف الجنس نحو الجنس وإلى الثاني كيف وضع مبدأ الأثرة وغالى بالنفس ورأى لها الاختصاص بالمنفعة في هذه الدنيا، تعيش فيها جافية ثم تخرج منها غير آسية. علم أن شعراء العرب حكماء لم تغرب عنهم الحقائق الكبر ولم يفتهم تقرير المبادئ الاجتماعية العالية وأنهم أقدر الأمم على تقريبها من الأذهان وإظهارها في أجلى وأجمل صور البيان.

وكان أبو العتاهية ينشئ الشعر عبرة وموعظة، وحكمة بالغة موقظة وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يرجع إليه في الوعظ والإرشاد والتحذير من الرذائل. والإغراء بالفضائل.

وكان الشافعي رحمه الله وهو القائل:

ولــولا الــشعر بالعلمــاء يــزري لكنــت اليــوم أشــعر مــن لبيــد

تجري ألفاظه بالشعر وله مقاطيع مختارة. وحكم في الناس سيارة. وحسبك أن الطب جميعه لو جمع لما خرج عن البيتين المنسوبين إليه وهما:

ثــلاث هــن مهلكــة الأنــام وداعيــة الــصحيح إلى الــسقام

دوام مدامــــــــــة ودوام وطء وإدخــال الطعــام علــى الطعــام

ولو انفسح لهؤلاء وأمثالهم المجال من الزمان والمكان وشهدوا عصر البخار كما نشاهده. وكابدوا الدهر في الهرم مثلما نكابده. لامتلأت الصدور من محفوظ أشعارهم ولضاقت المطابع على تنافسها عن نشر آثارهم.

قدمنا هذا ليعلم به فريق يحتقرون الشعر وآخرون منا معشر الشبان يضمرون للعربي منه عداوة من جهل الشيء ويرون بينه وبين الشعر الإفرنجي بعدما بين المشرق والمغرب ناسين أن العرب أمة قد خلت ودولة تولت فلا ينبغي أن يؤخذوا إلاّ بما تركوا وأن المسؤول عن خروجه بعدهم إنما هو الخلف المفرط والوارث المتلاف.

اشتغل بالشعر فريق من فحول الشعراء جنوا عليه وظلموا قرائحهم النادرة وحرموا الأقوام من بعدهم. فمنهم من خرج من قضاء الفكر والخيال ودخل في مضيق اللفظ والصناعة. وبعضهم آثر ظلمات الكلفة والتعقيد على نور الإبانة والسهولة. ووقف آخرون بالقريض عند القول المأثور ((القديم على قدمه)) فوصفوا النوق على غير ما عهدها العرب عليه وأتوا المنازل من غير أبوابها ودخلوا البيداء على سراب. وانغمس فريق في بحار التشابيه حتى تشابهت عليهم اللجج ثم خرجوا منها بالبلل. وزعمت عصبة أن أحسن الشعر ما كان في واد والحقيقة في واد ، فكلما كان بعيداً عن المواقع. منحرفاً عن المحسوس. مجانباً للمحتمل. كان أدنى في اعتقادهم إلى الخيال. وأجمع للجلال والجمال. حتى نشأ عن ذلك الإغراق الثقيل على النفوس والغلو البغيض إلى العقول السليمة.

على أن الكل قد مارسوا الشعر فناً على حدة. واتخذوه حرفة وتعاطوه تجارة إذا شاء الملوك ربحت وإذا شاءوا خسرت. ثم لم يكفهم ذلك حتى هجوا الشعر وذموه بكل لسان فزعموه مجلبة الشقاء وقالوا إنه محسوب على الشعراء يفيض من أرزاقهم وينحت من قلوبهم ويعرضهم لإراقة ماء الوجوه ولقد والله زعموا صدقاً وقالوا حقاً وإن هذا لجزاء قوم يتوقعون أرزاقهم من ملوك كرام يخلقهم الله لرواح حرفتهم فإذا لم يخلقوا كسدت الحرفة وأخطأت الأرزاق على أنه يستثنى من هؤلاء قليل لا يذكر في جنب الفائدة الضائعة بضياع الشعر مديحاً في الملوك والأمراء. وثناء على الرؤساء والكبراء. وإلاّ فمن دواوينهم ما يخلق أن يكون المثال المحتذى في شعر الأمم، كابن الأحنف مرسل الشعر كتباً في الهوى ورسائل ومتخذه رسلاً في الغرام ووسائل وكابن خفاجة شاعر الطبيعة ومجنون ليلاها. وواصف بدائعها وحلاها. وكالبهاء زهير سيد من ضحك في القول وبكى. وأفصح من عتب على

الأحبة واشتكى. وحسبك أنه لو اجتمع ألف شاعر يعززهم ألف ناثر على أن يحلوا شعر البهاء أو يأتوا بنثر في سهولته لانصرفوا عنه وهو كما هو.

ولا أرى بدأً من استثناء المتنبي مع علمي أنه المداح الهجاء. لأن معجز لا يزال يرفع الشعر ويعليه. ويغري الناس به فيجدده ويحييه. وحسبك أن المشتغلين بالقريض عموماً والمطبوعين منهم خصوصاً لا يتطلعون إلاّ إلى غباره ولا يجدون الهدى إلاّ على مناره. ويتمنى أحدهم لو أتيح له ممدوح كممدوحه ليمدحه مثل مديحه أو لو وقع له كافور مثل كافوره ليهجوه مثل هجائه فمثل أبي الطيب في تشبه الشعراء به وسعيهم لبلوغ شأوه في المدح أو الهجو كمثل قائد مشهور الأيام. معروف بالحزم والإقدام. قد أشربته قلوب الجند وملئت نفوسهم ثقة منه فلو قذف بهم في مهاوي الهلاك وهم يعلمون لما جبنوا ولا أحجموا. هذا مع اعترافي بأن المتنبي صاحب اللواء. والسماء التي ما طاولتها في البيان سماء. ولو سلم من الغرور وسلم الناس من لسانه لأجللته إجلال الأنبياء.

والحاصل أن إنزال الشعر منزلة حرفة تقوم بالمدح ولا تقوم بغيره تجزئة يجل عنها ويتبرأ الشعراء منها. إلاّ أن هناك ملكاً كبيراً ما خلقوا إلا ليتغنوا بمدحه ويتفننوا بوصفه ذاهبين فيه كل مذهب آخذين منه بكل نصيب وهذا الملك هو الكون، فالشاعر من وقف بين الثريا والثرى. يقلب إحدى عينيه في الذر ويجيل أخرى في الذرى. يأسر الطير ويطلقه. ويكلم الجماد وينطقه. ويقف على النبات وقفة الطل. ويمر بالعراء مرور الوبل. فهنالك ينفسح له مجال التخيل ويتسع له مكان القول ويستفيد من جهة علماً لا تحويه الكتب ولا توعيه صدور العلماء ومن جهة أخرى يجد من الشعر مسلياً في الهم. ومنجياً من الغم. وشاغلاً إذا أما الفراغ ومؤنساً إذا تملكت الوحشة. ومن جهة ثالثة لا يلبث أن يفتح الله عليه فإذا الخاطر أسرع والقول سهل والقلم أجرى والمادة أغزر بحيث لا تمضي السنون حتى تتداول الأيدي مؤلفاته. وإذا مات أكبر الناس من بعده مخلفاته. أو لم يكن من الغبن على الشعر والأمة العربية أن يحيا المتنبي مثلاً حياته العالية التي بلغ فيها إلى أقصى الشباب ثم يموت عن نحو مائتي صحيفة من الشعر تسعة أعشارها لممدوحيه والعشر الباقي وهو الحكمة والوصف للناس.

هنا يسأل سائل وما بالك تنهى عن خلق وتأتي مثله فأجيب أني قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم ولا أجد أمامي غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها. وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء. والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلاّ ما كان مدحاً في مقام عال ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الأسمى في البلاد. فما زلت أتمنى هذه المنزلة وأسمو إليها على درج الإخلاص في حب صناعتي وإتقانها بقدر الإمكان وصونها عن الابتذال حتى وفقت بفضل الله إليها ثم طلبت العلم في أوربا فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم وعلمت أني مسؤول عن تلك الهبة التي يؤتيها الله ولا يؤتيها سواه وأني لا أؤدي شكرها حتى أشاطر الناس خيراتها التي لا تحد ولا تنفد وإذ كنت أعتقد أن الأوهام إذا تمكنت من أمة كانت لباغي إبادتها كالأفعوان. لا يطاق لقاؤه ويؤخذ من خلف بأطراف البنان جعلت أبعث بقصائد المديح من أوروبا مملوءة من جديد المعاني وحديث الأساليب بقدر الإمكان إلى أن رفعت إلى الخديوي السابق في قصيدتي التي أقول في مطلعها:

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن الثناء

والتي غزلها في أول هذا الديوان. وكانت المدائح الخديوية تنشر يومئذ في الجريدة الرسمية وكان يحررها يومئذ أستاذي الشيخ عبد الكريم سلمان فدفعت القصيدة إليه وطلب منه أن يسقط الغزل وينشر المدح فود الشيخ لو أسقط المديح ونشر الغزل ثم كانت النتيجة أن القصيدة برمتها لم تنشر فلما بلغني الخبر لم يزدني علماً بأن احتراسي في المفاجأة بالشعر الجديد دفعة واحدة إنما كان في محله وأن الزلل معي إذا أنا استعجلت.

ثم نظمت روايتي "علي بك أو فيما هي دولة المماليك" معتمداً في وضع حوادثها على أقوال الثقاة من المؤرخين الذين رأوا ثم كتبوا وبعثت بها قبل التمثيل بالطبع إلى المرحوم رشدي باشا ليعرضها على الخديوي السابق فوردني منه كتاب باللغة الفرنساوية يقول في خلاله:

((أما روايتك فقد تفكه الجناب العالي بقراءتها وناقشني في موضع منها وناقشته وهو يدعو لك بالمزيد من النجاح ويحب ألا تشغلك دروس الحقوق التي تمكنك تحصيلها وأنت في بيتك بمصر عن التمتع من معالم المدينة القائمة أمامك وأن تأتينا من مدينة النور (باريز) بقبس تستضئ به الآداب العربية)).

فصادفت هذه النصيحة العالية من أمير ذكي حكيم هوى في فؤادي مطوى على طاعته نازل على حكم الشعر والأدب فترجمت القصيدة المسماة "بالبحيرة" من نظم "لمرتين" وهي من آيات الفصاحة الفرنساوية. ثم أرسلتها إلى الباشا المشار إليه في كراس وبعض كراس ليطلع الجناب الخديوي عليها وإذ كنت لا أتخذ لشعري مسودات رجوت أني أجدها عنده بعد العودة إلى مصر ثم عدت دون ذلك عواد.

وجربت خاطري في نظم الحكايات على أسلوب (لافونتين) الشهير وفي هذه المجموعة شيء من ذلك فكنت إذا فرغت من وضع أسطورتين أو ثلاث أجتمع بأحداث المصريين وأقرأ عليهم شيئاً منها فيفهمونه لأول وهلة ويأنسون إليه ويضحكون من أكثره وأنا أستبشر لذلك وأتمنى ولو وفقني الله لأجعل لأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المتمدنة منظومات قريبة المتناول يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم.

والخلاصة أني كنت ولا أزال ألوى في الشعر على كل مطلب. وأذهب من فضائه الواسع في كل مذهب. وهنا لا يسعني إلا الثناء على صديقي خليل مطران صاحب المنن على الأدب. والمؤلف بين أسلوب الإفرنج في نظم الشعر وبين نهج العرب والمأمول أننا نتعاون على إيجاد شعر للأطفال والنساء وأن يساعدنا سائر الأدباء والشعراء على إدراك هذه الأمنية. على أني لا أستصعب في مصر اليوم صعباً بعدما علمت أن كثيراً من النساء في العاصمة أصبحن يرقبن ساعة ظهور الجرائد بصبر نافذ وأن إحداهن طردت خادماً لها أرسلته يشتري نسخة من جريدة فأبطأ مع علمه بأن مولاته لا تستطيع صبراً عن أخبار الحرب الترنسفالية. إذا فالواجب على الكتاب ورجال الصحافة في أولهم أن يهيئوا أسباب النجاح لهذا الميل الحادث وعلى الأدباء والشعراء أن يعرضوا فاكهتهم على النساء مثل الرجال حتى تصبح جنات

قرائحهم فيها من كل فاكهة زوجان.

بقي استدراك لا بد من إيراده وذلك أن بعضهم يستنتج من كون الناثر لا ينظم أن الشاعر لا ينثر كذلك ولا ينبغي له وهذا وهم يداني اليقين عندهم وقد جاوز الشعراء في الانخداع به حداً أضر بهم مع أنه يكفي للخروج منه أن نعلم أن أكثر ما أعجز به أدباء الإفرنج اليوم في القصص والإنشاء وما يمثل على أكبر ملاعبهم وتتداوله ألسنتهم من مرسل الكلم ومنثور الحكم وما كتب في هذا القرن والذي قبله في الفلسفة العليا والسياسة الكبرى إنما هو من قلم مشاهير الشعراء حتى لتسمع عن أحدهم أنه مات عن عشرات من المؤلفات ثم ترى المنظوم منها أقلها بل أن بعضهم يقدم "الأشقياء" وهو كتاب لفكتور هوجو على سائر مؤلفاته وفيها الشعر كما يرون "اعترافات ابن العصر" لألفريد دي موسيه أجل أثر له بين كثير من الآثار وفيها الروايات المنظومة والأشعار وكلا الشاعرين مطبوع لم يختلف في سليقته اثنان.

على أني كنت أول من انقاد بأزمة هذا الوهم وطالما أوذيت به فكنت إذا عرضت لي كتابة أشفق منها وأجفل عنها فصرت مثلي مثل الشاعر الفرنسوي الذي يحكى عنه أنه لما رأى أهل باريز يبالغون في الحفاوة به ويكثرون من دعوته إلى موائدهم ومجالسهم ليسمعوا حديثه على ظن أنه يقول ما لا يقوله الناس بلغ به الاحتراس منهم إلى أن كان إذا دعي إلى وليمة حضر والقوم على المائدة فأكل صامتاً ثم انصرف والقوم لم يفرغوا من الطعام فقيل له في ذلك. فقال لهم أنا على المائدة كأحدكم فإذا جلست إزاء مكتبتي فتصوروني كيف شئتم.

أما كون الناثر لا ينظم إلا إذا كان حاصلاً على هذه الملكة الموهوبة فحقيقة لا مشاحة فيها وإن لم يكن بذلك عار على الكاتب بل الغبن الفاحش والخسران المبين أن تضيع حياة الكثيرين من الكتاب والعلماء وليست بقليلة الثمن في محاولة المحال والتمادي في مثل هذا الضلال على أن الشعر ليس من حاجيات العمران المادي الذي تتوقف عليه سعادة الإنسان في هذه الحياة الدنيا ولكنه من كماليات العمران الأدبي الذي تسأم النفس عنده الحقيقة المجسدة. والمادة المجردة. وتميل في بعض أوقاتها إلى التنقل بشعورها من عالم إلى آخر ومن فضاء إلى سواه ولعل هذه هي

الحكمة في كون الشعراء قليلاً عديدهم في كل زمان ومكان لا تعطى الأمم منهم إلاّ بقدر حاجتها إليهم ومما يجمل إيراده في هذا المقام أنه بدا لأحد الانكليز أن تكون عنده مجموعة فيها من كل شاعر عصري شيء من نظمه بخطه فجعل يطوف بها على مشاهير الشعراء حتى وفد على جول سيمون فقيد فرنسا وفيلسوفها المشهور فطلب منه أن يكتب شيئاً من نظمه فاعتذر الرجل بكونه ما نظم قط لا يملك قول الشعر فما زال الانكليزي يلح عليه حتى أحرجه وكان جول سيمون يحفظ أبياتاً للشاعر الشهير لمارتين وكانت أحسن ما في منظومته التي سماها "البحيرة" فأخذ المجموعة وكتب الأبيات ثم جعل اسمه تحتها واتفق بعد ذلك أن المجموعة وقعت في يد منتقد أدبي لبعض الصحف السيارة في باريز وكان لا يعرف الشعر ولا يدري لمن هو فلم يكن منه إلا أن ملأ أعمدة الجريدة من انتقادها ورمى جول سيمون بالدخول فيما لا يعنيه والتطفل على موائد الشعراء ثم نصح له أن يبقى فيلسوفاً كما كان ومن الفلسفة إلا يحاول الإنسان ما ليس في الإمكان.

يعلم مما تقدم جميعه أنني أرى للمشتغلين بالشعر من أبناء "الوطن العربي" أن يجمعوا في مسيرهم على الدرب بين أزواد ثلاثة لا وصول بدونها مجتمعه.

"الأول" ثقة الإنسان من كون الشعر في طباعه وهذا هو الشرط الأوجب وأنه لأمر يعنى الإباء والأساتذة أكثر من سواه ولا ينبغي لهم أن ينصرفوا في مستقبل الأطفال الذين هم أمانة الله في أيديهم بمقتضى أميالهم الشخصية وأفكارهم الخصوصية بل عليهم إذا آنسوا هذه الهبة عند الطفل أن يأخذوا بيده ويعينوه عليها ولو كانوا من ينظرون إلى الشعر بعين السخط لأن الله سبحانه وتعالى وهو الواهب قد رأى له ذلك وما يرى الله أفضل وإذا وجدوه دعياً في الشعر دخيلاً منذ الطفولة وجب عليهم تبغيضه إليه وممانعته عن نظمه ولو كانوا من محبي الشعر ونصرائه.

"والثاني" أخذ العلوم وتناول التجارب لأن الشعر لا يخرج عن كونه أخباراً وحكمة وهما لا يكونان إلا من عليم مجرب.

"والثالث" ألا يتخذ الشعر حلية على عطل من سائر أمور الدنيا وأشغالها فإن كان لا بد من التفرغ للأدب حباً به أو طلباً للكسب فليكن الشعر هو اليتيمة

القعساء في عقد علومه وصاحب العلم في موكب فنونه لا يناي تعاطيه الكتابة نثراً في جميع المطالب وضروب المواضع فإنك لا تجد الشعر وسلطانه عندئذ إلا مرشدين أمينين وذخرين ثمينين.

فمن جمع بين هذه الأمور الثلاثة وكان عاملاً متقناً لعمله حريصاً عليه مترقياً فيه يخاف الله في الغرور ويخشاه في إيذاء خلقه فقد انكشف له سر النجاح وأحرز قصب السبق في حلبة الكتاب والشعراء.

* * * * *

الآن أدخل في الحديث مع فريق طلبوا مني أن أجعل صورتي في هذه المجموعة وآخرين رغبوا إليّ في كلمة تقال عنها وعن صاحبها وألا يقولها سواي.

معذرتي إلى الفريق الأول أن من يعرض صورته على الناس كمن يعرض وجهه عليهم وأعوذ بالله وبالمحبين أن أكون ذلك الرجل على أن صورتي ما عشت بينهم ينظرون إليها فإذا مت فليأخذوها من أهلي إذا جد بهم الحرص عليها.

وللآخرين أقول أني لا أزال في أول النشأة وأن حياتي لم تحفل بعد بالعجائب ولم تمتلئ من الفوائد ولا المصائب حتى أحدث الناس بأخبارها لكني لا أثق بيومي الآتي وأخاف بمدى رجوم الظن وضلات الأحاديث فلي العذر أن أجيب طلبهم على أن يكون الحديث بيني وبينهم كما يكون بين الأحباب.

سمعت أبي رحمه الله يرد أصلنا إلى الأكراد فالعرب ويقول أن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والي مصر محمد علي باشا وكان جدي وأنا حامل اسمه ولقبه يحسن كتابة العربية والتركية خطاً وانشاء فأدخله الوالي في معيته ثم تداولت الأيام.وتعاقب الولاة الفخام. وهو يتقلد المراتب العالية. ويتقلب في المناصب السامية. إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية فكانت وفاته في هذا العمل عن ثروة راضية بددها أبي في سكرة الشباب ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم وعشت في ظله وأنا واحد أسمع بما كان من سعة رزقه ولا أراني في ضيق حتى أندب تلك السعة فكأنه رأى لي كما رأى لنفسه من قبل ألا أقتات من فضلات الموتى.

أما جدي لوالدتي فاسمه أحمد بك حليم ويعرف بالنجدة لي نسبة إلى نجدة إحدى قرى الأناضول وفد على البلاد فتياً كذلك فاستخدمه والي مصر ابراهيم باشا من أول يوم ثم زوجه بمعتوقته جدتي التي أرثيها في هذه المجموعة وأصلها من مورة جلبت منها أسيرة حرب لا شراء وكانت رفيعة المنزلة عند مولاها وكان زوجها محبوباً عنده كذلك فما زالا كلاهما مغمورين بنعمة هذا البيت الكريم حتى توفي جدي وهو وكيل لخاصة الخديوي اسماعيل باشا فأمر بنقل مرتبه برمته إلى أرملته وأن يحسب ذلك معاشاً لا إحساناً وكان الخديوي المشار إليه يقول عنهما "لم أر أعف منه ولا أقنع من زوجته ولو لم يسمه أبي حليماً لحلمه لسميته عفيفاً لعفته".

* * * * *

أنا إذاً عربي. تركي. يوناني جركسي بجدتي لأبي. أصول أربعة في فرع مجتمعة. تكفله لها مصر كما كفلت أبويه من قبل. وما زال لمصر الكنف المأمول والنائل الجزل. على أنها بلادي. وهي منشأي ومهادي. ومقبرة أجدادي. ولد لي بها أبوان ولي في ثراها أب وجدان. وببعض هذا تحبب إلى الرجال الأوطان.

أما ولادتي فكانت بمصر القاهرة وأنا اليوم أحبو إلى الثلاثين حدثني سيد ندماء هذا العصر المرحوم (الشيخ علي الليثي) قال لقيت أباك وأنت حمل لم يوضع بعد فقص علي حلماً رآه في نومه. فقلت له وأنا أمازحه ليولدن لك ولد يخرق كما تقول العامة خرقاً في الإسلام.

ثم اتفق أني عدت الشيخ في مرض الموت وكانت في يده نسخة من جريدة الأهرام فابتدر خطابي يقول هذا تأويل رؤيا أبيك يا شوقي فو الله ما قالها قبل في الإسلام أحد قلت وما تلك يا مولاي قال قصيدتك في وصف "البال" التي تقول في مطلعها:

حـــف كأســـها الحبـــب فهـــي فـــضة ذهـــب

وما هي في يدي أقرأها. فاستعذت بالله وقلت له الحمد لله الذي جعل هذه هي "الخرق" ولم يضر بي الإسلام قتيلا.

أخذتني جدتي لأمي من المهد وهي التي أرثيها في هذه المجموعة وكانت منعمة موسرة فكفلتني وكانت تحنو علي فوق حنوهما وترى لي مخايل في البر مرجوة.

حدثتني أنها دخلت بي على الخديوي اسماعيل وأنا في الثالثة من عمري وكان بصري لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه فطلب الخديوي بدرة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقعت على الذهب اشتغل بجمعه واللعب فقال لجدتي اصنعي معه مثل هذا فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض قالت هذا دواء لا يخرج من صيدليتك يا مولاي قال جيئي به إليّ متى شئت إني آخر من ينثر الذهب في مصر.

ولا يزال هذا الارتجاج العصبي في الإبصار يعاودني وكان المرحوم الشيخ علي الليثي كما التقت عينه بعيني ينشد هذا المصراع للمتنبي:

"محاجر مسك ركبت فوق زئبق"

دخلت في مكتب الشيخ صالح وأنا في الرابعة وهي من أهلي جناية على وجداني أغفرها لهم ثم انتقلت منها إلى المبتديان فالتجهيزية فكنت التلميذ الثاني لهذه المدرسة وأنا في الخامسة عشرة وكان ناظرها المرحوم صادق باشا شنن قد حصل لي من النظارة على "المجانية" يوجه الاستثناء لا عن حاجة إليها ولكن على سبيل المكافأة ثم رأى لي أبي أن أدرس القوانين والشرائع فدخلت مدرسة الحقوق وكان ناظرها المأسوف عليه "فيدال باشا" لا يراني أهلاً لذلك بالسن فما زال أستاذي وصديقي المهذب يحيى بك ابراهيم وكيل المدرسة يومئذ يؤيدني عند رئيسه إلى أن قبلت ثم لم يكفه ذلك حتى حصل لي من النظارة على مائتي قرش في الشهر فدرست الحقوق سنتين ثم ارتأت الحكومة أن ينشأ بمدرسة الحقوق قسم للترجمة يتخرج فيه المترجمون الأكفاء فنصح لي الوكيل أن أدخل هذا القسم ففعلت...

وأقمت به سنتين ثم منحتني نظارة المعارف الشهادة النهائية في فن الترجمة وبينما أنا أتردد على المغفور له علي باشا مبارك في شأن ورد عليه مرسوم من المعية السنية بطلبي إليها فكان سروره بذلك أضعاف فرحتي بالنعمة المفاجئة فذهبت إلى السراي وهنالك استؤذن لي على المرحوم الخديوي توفيق باشا فلما مثلت بين يديه ولم أكن رأيته من قبل ولكن مدحته مراراً وأنا في المدرسة خاطبني بهذا اللفظ الشريف "قرأت يا شوقي في الجريدة الرسمية أنك أعطيت الشهادة النهائية وكنت أنتظر ذلك لألحقك بمعيتي لكن ليس بها الآن محل خال فهل لك الانتظار ريثما

يهيئ الله لك الخير" فاستلمت أذيال العزيز وقبلتها ثم قلت حسبي يا مولاي أنك قد ذكرتني من تلقاء نفسك الشريفة وأي خير يهيئ الله لعبدك أفضل من هذا فأطرق هنيهة ثم قال قد سمعت أن أباك عطل من الخدمة فبلغه أني ربما أدخلته في عمل قبلك ثم تهلل وأذن لي بالانصراف.

فلبثت في المعية بضعة شهور أنتظر فرجاً يأتي به الله وكان المرحوم علي باشا مبارك لم يقطع عني الراتب. إلى أن كان يوماً كثر غيمه وتثاقل مطره فخرجت قبيل الأصيل في حاجة لي على حمار أبيض كان لوالدي وبينما أنا عائد إلى منزلي أجتاز ميدان عابدين بصرت بالعزيز في بهو السراي يشرف منه فنزلت عن الدابة أمشي كرامة للمليك المطل وأمرت الخادم أن يبتعد بها وأن يلاقيني خلف القصر ثم مشيت على الأقدام حتى إذا انتهيت من الميدان اعترضني رسول من الأمير يدعوني إليه فوافيت حضرته وأنا لا أعرف السبب وكان معه ساعتئذ المرحوم عبد الرحمن باشا رشدي فتحلى الحليم بصورة الغضب ثم قال أليس لي أن أطل من بيتي حتى نزلت عن حمارك وألجأتني إلى الانثناء قلت عفواً يا مولاي هكذا أدبنا الأوائل حيث يقول شاعرهم:

وإذا المطـــي بنـــا بلغـــن محمـــداً

فظهـــورهن علـــى الرجـــال حـــرام

فتبسم ضاحكاً. ثم قال إنكم معشر الشعراء تتفاءلون بالغيوم فهذا اليوم من أيامكم فاسمع للباشا فإن عنده لك فألاً فالتفت الباشا عندئذ إلي وقال الآن أمرني أفندينا أن أبلغك تعيين أبيك مفتشاً في الخاصة الخديوية وأما أنت فتعين بعد شهر ثم مد العزيز إليّ يده فقبلتها واجماً قد غلب علي السرود حتى أنساني الشعر وكان ذلك وقته ثم لم يحل عليّ حول في الخدمة الشريفة حتى رأى لي الخديوي أن أبلغ التأديب في أوروبا فخيرني في ذلك وفيما أريده من العلوم فاخترت الحقوق لعلمي أنها تكاد تكون من الأدب وأن لا قدم فيها لمن لا لسان له فأشار الأمير علي عندئذ أن أجمع في الدراسة بينها وبين الآداب الفرنساوية بقدر الإمكان ثم سافرت على نفقته فكنت أنقد ستة عشر جنيهاً في الشهر نصفها من المعية ونصفها من الخاصة

وأعطاني يوم سفري مائة جنيه أرسل نصفها إلى مدير الإرسالية ليهيئ لي جميع ما أحتاج إليه حال وصولي ودفع إلي النصف الآخر بيده الشريفة وما أنس من مكارمه رحمة الله عليه لا أنس قوله لي في ساعة الوداع "لا حاجة بك منذ اليوم إلى أهلك فلا تعنتهم بطلب النقود وأعنت أباك هذا الغنى".

فركبت البحر لأول مرة أؤم مرسيليا فلما قدمتها وجدت مدير الإرسالية في انتظاري فأخبرني بأن الأمير يأمر بأن أقضي عامين في مدينة مونبلييه وآخرين في باريز وكان المدير قادماً من مونبلييه للقائي فعاد بي إليها على الفور وهنالك قدم لي جميع ما أحتاج إليه وأدخلني مدرسة الحقوق الجامعة ثم رجع إلى العاصمة. فلما انقضت السنة الأولى التمست من ولي النعم أن يأذن لي في الأوبة إلى مصر لقضاء زمن العطلة بين أهلي فأوقع إلي أمره أن هذا من نزق الشباب وأنه يرى لي أن أقيم أربع سنوات كاملة في أوروبا وألا أضيع منها دقيقة واحدة ثم أرسل إلي خمسين جنيهاً لأنفقها في رحلة أزمعها إلى أي بلد أشاء إلا مصر وكانت الدعوات قد توالت علي من الفرنساويين رفقائي في المدرسة بالذهاب إلى مدنهم المتفرقة في الجنوب وقضاء بعض الأيام في ضيافتهم هنالك فقضيت نحو شهرين كنت فيها قرير العين طيب النفس ناعم البال حيث التفت رأيت حولي مناظر رائقة. ومجالي شائقة ومعالم للحضارة في أقاصي القرى شاهقة وآثاراً لدولة الرومان. تزداد حسناً على تقادم الزمان وعرفت الفلاح الفرنساوي في داره وكنت ألقاه في مزرعته وأماشيه في الأسواق فيخيل لي أنه قد خلف العرب على قرى الضيف وإكرام الجار وكان أعجب ما رأيت مدينة "كركسون" وجدتها قسمين وألفيت القوم عليها صنفين فمنهم الباقون إلى اليوم كما كان عليه آباؤهم في القرون الوسطى بناؤهم ذلك البناء ولباسهم ذلك اللباس وعاداتهم وأخلاقهم تلك العادات والأخلاق والآخرون خلق جديد وشعبة كسائر شعب الأمة في أخذهم بأشياء التمدن العصري وبالجملة كانت نتيجة هذه النقل من أجل نعم الله علي وأسنى أيادي الخديوي السابق عندي.

ثم ما كنت أنتهي من السنة الثانية حتى كتب إلي مدير الرسالة المصرية يستقدمني لباريز ويخبرني أنه ذاهب بتلامذته إلى انكلترا لقضاء أكثر أيام العطلة

فيها وأن الأمير رحمه الله أدى نفقة هذه السياحة عني إذا رغبت فيها فبرحت مونبلييه على عجل أيمم باريز للمرة الأولى فأقمت بها يومين ريثما أهبت للرحلة ثم سافرنا إلى عاصمة انكلترا فلبثنا فيها نحو شهر نغشى من معالمها في الحضارة ونشاهد من دوران دولاب التجارة والصناعة فيها ما ينتهي إليه العظم والجلال في هذا العصر لكنا لم نلبث أن سئمناها وهذا أكبر عيوبها فخرجنا إلى بعض المدائن على بحر الشمال وهناك وجدنا راحة الخاطر وقرة الناظر وأن يكن الجو كثير التقلب غداراً في غالب الأحيان فلما كانت السنة الثالثة وهي الأولى لي في باريز أصبت بمرض شديد كنت فيه بين الحياة والموت فاستخدمت ممرضة تسهر علي وتعمل بإشارتي في الحركة والسكنة فكنت أسمعها وأنا في سكرات الحمى تقول "أيفي مثل هذا الشباب تذهبون" ثم تكفف الدمع لكن الله خيب ظنونها ومنّ علي بالشفاء وعندئذ أشار علي الأطباء أن أقضي أياماً تحت سماء إفريقيا على زعم أن الذي بي من الضجر والسآمة ليس إلا حنيناً للوطن فوقع اختياري على الجزائر فرحلت إليها مع أحد قضاتها الفرنساويين فنفعتني مرافقته وظل دليلي على الهدى عاصمة المستعمرة نحو عشرين يوماً ثم برحها إلى أوران.

أما جو الجزائر فلا يعدله بين الأجواء في صحوه وطيب نسمته مع توقد شمسه إلاّ جنوب فرنسا. ولم أتأثر فيها كتأثري من رؤية المصريين في القهاوي البلدية إذ أكثر أصحابها وغلمانها منهم وكان قد بلغهم جلوس مولانا الخديوي القائم عباس باشا على الأريكة المصرية فكنت أراهم فرحين بالنبأ وأسمعهم يدعون لسموه ولا عيب في الجزائر سوى أنها قد مسخت مسخاً فقد عهدت مساح الأحذية فيها يستنكف من النطق بالعربية وإذا خاطبته بها لم يجبك إلا بالفرنساوية على أن حركة العمران في المدينة عجيبة وآثار التمدن الفرنساوي بادية عليها ولكن المسلمين من أهلها لا يشاركون القوم في شيء من ذلك ولا يتهافت مترفوهم إلا على مضار التمدن وأسوائه فكأن حظنا واحد في كل مكان.

أقمت بالجزائر أربعين يوماً أو تزيد ثم حثثت الرحال عنها قافلاً إلى باريز وهناك تمت لي السنة الثالثة في الحقوق وحصلت على الشهادة النهائية فيها فرأى لي

الجناب العالي أيده الله أن أقضي في العاصمة ستة شهور أتمكن فيها من معرفة أشياء باريز وأهلها وقد كان في الدراسة ما يشغل عن ذلك وحول دونه ثم انقضت تلك المدة على ما رسم لي الرأي العالي أيده الله فعدت إلى الوطن وأنا نضو فراق. تهزني إليه الأشواق.

وفي سنة ١٨٩٦ للميلاد ندبني جنابه الفخيم لأنوب عن حكومته السنية في مؤتمر المستشرقين الذي كان انعقاده في مدينة جنيف عاصمة سويسرا.

فكانت خير فرصة تغتنم لمشاهدة هذه البلاد التي هي المجلى البديع لعروس الطبيعة فرحلت إليها وأقمت بها شهراً ثم انفض المؤتمر فبرحتها إلى بلجيكا لمشاهدة عاصمتها وزيارة المعرض الذي أقيم بمدينة انغرس في ذلك العام.

لما كانت السنة الماضية وكنت قد سئمت الحضر على أثر رمد طال أمده خرجت إلى الأستانة طلباً للعافية على ضفاف البسفور فأذن الله وكان ما رجوت وعدت من عاصمة الإسلام وأنا أعتقد أن خطرات النسيم فيها تفعل في أربعين يوماً ما لا يفعله طب الأطباء في أربعين شهراً.

هذه هي أيام صباي وخطوات شبابي وأوائل نشأتي أجبت عنها السائل ليعلم كيف انقضت وفيم أنفقت وأين ذهبت وأنا أستغفر الله لي ولأهلي ولمن ينظر إلى هذا الكتاب بعين الكريم المتجاوز أو المنتقد العدل.

جمعتني باريز في أيام الصبا بالأمير شكيب أرسلان وأنا يومئذ في طلب العلم والأمير حفظه الله في التماس الشفاء فانعقدت بيننا الألفة. بلا كلفة وكنت في أول عهدي بنظم القصائد الكبرى وكان الأمير يقرأ ما يرد عليه منها منشوراً في صحف مصر فتمنى أن تكون لي يوماً ما مجموعة ثم تمنى علي إذا هي ظهرت أن أسميها الشوقيات.

ثم انقضت تلك المدة فكأنها حلم في الكرى أو خلسة المختلس أو هي كما قلت:

صحبت شكيباً برهة لم يفز بها

سواي على أن الصحاب كثير

حرصـــت عليهـــا آنـــة ثـــم آنـــة

كمـــا ضـــن بالمـــاس الكـــريم خـــبير

فلمـــا تـــساقينا الوفـــاء وتم لـــي

وداد علـــى كـــل الـــوداد أمـــير

تفـــرق جـــسمي في الـــبلاد وجـــسمه

ولم يتفـــــرق خـــــاطر وضـــــمير

هذا أصل التسمية سبقت به إشارة لا تخالف ودفعت إليه طاعة واجبة وأنا بين هاتين هدف للقال والقيل. يظن بي نسبة الأثر الضئيل. إلى الاسم القليل.

كانت وفاة والدي من نحو ثلاث سنوات فكان لي عجباً أن وجدت بين أوراقه شيئاً كثيراً من مشتت منظومي ومنثوري ما نشر منها وما لم ينشر قد كتب بعضها بالحبر والبعض الآخر بالرصاص والكل خط يد المرحوم وقد لفه في ورقة كتب عليها العبارة "هذا ما تيسر لي جمعه من أقوال ولدي أحمد وهو يطلب العلم في أوروبا فكنت كأني أراه. وإني آمره أن يجمعه ثم ينشره للناس لأنه لا يجد بعدي من يعتني بشؤونه وربما لم يوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب" فبينما أنا ذات يوم تعب بهذه الأوراق حيران لوصية الوالد كيف أجريها زارني صديقي مصطفى بك رفعت فحدثته حديثي فسألني أن أعيره الأوراق أياماً ثم يعيدها إلي ففعلت ثم لم يمضِ شهراً حتى بعث بها إلي وإذا هي قد نسخت بقلم مليح يؤيده ذوق صحيح. بحيث لم يبق إلا أن تدفع إلى المطابع فأخذتها وبودي لو وفيت صديقي المشار إليه حقه من شكر الصنع وأنا أقول في نفسي لئن صدق أبي في الأولى لقد ظلم في الثانية فإن الخير لا يزال في الناس.

على أن ما جمع في "الشوقيات" ثم طبع ليس هو كل ما قيل فقد أسقطت منه الكثير وعثرت على غيره ولكن في الزمن الأخير فأما ما أسقط عمداً فأكثره من قولي في زمن الصبا الذي لا يؤمن فيه على المرء الغرور. ولا يسلك الفتى فيه سبيلاً

إلا وهو مضلل عثور. وقد خشيت أن يقع مثل ذلك في أيدي الناشئة فأسأل عن سوء وقعه ويكون إثمه أكبر من نفعه لكني حرصت على إثبات بعض الشيء منه كما يحرص الإنسان على ذكر ما طاب من أيام الشباب وأما ما عثرت عليه والمجموعة في أيدي الطباع فلم يكن في الوسع أخذه لئلا يختلط الكتاب ويختل ترتيب الأبواب على أنه محفوظ لينشر في الجزء الثاني إن شاء الله تعالى مع سائر القصائد التي أقيلت بعد الإعلان عن الشوقيات ولم يتيسر إدخالها في أبواب هذا الجزء.

وقد عزمت بحول الله ومشيئته على أن أنشر في آخر كل عام هجري ما يحصل عندي من منظوم ومنثور ولو قل عدده وصغر حجمه وأن أجعل ذلك بمثابة أجزاء متتالية "للشوقيات" تسمى باسمها وتكون لها متممة.

obeikandl.com